أخي عادل

كنت أعلم حاجة أخي الأكبر للزواج والإستقرار وقد شارف الثانية والثلاثين، وحاجته الماسة ليزيد دخله.. هذا الأخ الباسل ذو القلب الذهبي الذي لا يضن بروحه من أجلنا، هذا الأخ المعطاء الذي قدّم لنا عشرين عاما من جهده دون أن يتذمر أو يمن علينا.. انني أدين له بحياتي، فلولاه لكنت جثة في قبر، ويدين له أخواي هاشم ومعتصم أنهما أكملا دراستهما الثانوية وأصبحا اليوم معلمين وانتسبا للجامعة في دمشق، أحدهما في كلية الحقوق والآخر في فرع الجغرافيا.

كان مضطرا وهو في فلسطين أن يستدين في كل شهر قدر راتبه فربط مصيره بالشركة التي يعمل فيها، والتي استغلت ظروفه لتديم عمله بأجر لا يساوي جهده: يدير بنفسه العمل، وينظم الحسابات، وتغدق اقتراحاته على الشركة الثروات، وتوفر ملاحظاته ودقته عليها الألوف من التضييع.. كانت ظروفه تشله عن تغيير وضعه، اذ كانوا يتدخلون في الوقت المناسب ليعرقلوا مسعاه.. كان مدير المصرف العربي كثيرا ما يتردد على الشركة التي يعمل بها ويعجب بذكائه وأمانته والترتيب والدقة التي يمسك بها الدفاتر لشركته، فعرض عليه أن يسلمه فرعا للمصرف يريد أن يفتتحه في دمشق براتب مغر، فجن جنون أصحاب الشركة، وعملوا على إجهاض هذا الأمر، وخاصموا صاحب المصرف وتوعدوه بسحب أرصدتهم من عنده، فسعى ليجد بديلاعنه.. كان يتمنى لو ينفلت من قبضة العمل ليطور نفسه، ويبدأ في مكان آخر غير هذا المكان الذي يتناحر فيه الإخوة الأشقاء ويسرق بعضهم بعضا، ويستكلبون على الربح من أي مصدرجاء حتى البيع لإسرائيل بعد قرار المقاطعة من اللجان العربية، وسرقة بطاقات المواد المدعومة من الدولة، لتباع في السوق السوداء.. ولكنه يفكر بنا، ففي الظروف السيئة التي تمر بها فلسطين واحتمال البطالة، ما كان ليستطيع المغامرة بنا، فالمغامرة ليست من طبعه ولا تتلاءم مع المسؤولية التي يحملها، وزيادة ضئيلة في أجره كل بضعة أشهر تخفف قليلا من ذرف جراحه..

كان في الفترة التي درس فيها كتب المحاسبة لا ينام الليل أكثر من ساعات أربع، كابدت في أثنائها أمي الهم المبرح في أن تتلف صحته فلا يقوى بعدها على العمل، وتجهد الفكر لتدبر له غذاءا مناسبا، وتثورثائرتها حين تجد أصابع صغيرة قد غمست في صحنه لتجرده من اللحم، أو أن تلته المفعمة قد أصبحت غامرة، وتنظر بعينين متهمتين فيهما أسى وفيهما إشفاق، وتعلم أن أحد أخوي هو غريمها، اذ لم يكن من عادتي أنا أن أفعل هذا فما كانت شهيتي تنزع بي لآخذ حصة غيري، بل كثيرا ما كنت أتخلى عن بعض حصتي لواحد من إخوتي الأصغر سنا مني..

كنت يافعة مغمورة بعالم سحري من صنع خيالي وكأنني أغتذي بعواطفي وأعصابي وحدها، فإذا ما أحسست بالجوع كنت أكتفي بالخبز أرش عليه الزيت والزعتر وأنا أقرأ احدى القصص.. ولكنني دفعت ثمن هذا غاليا ودفعته بعدي أختي.. كنت حليفة أمراض سوء التغذية، وأصابتني أنيميا، وما كان عادل ليتركني تتفاقم حالتي فرضي الجهد المميت فوق جهده واستلم حسابات مشروع جديد للشركة، وكان اذا انتهى عمل النهار، وعاد فاقد القوى من الإعياء حمل معه دفاتر غليظة وتناول عشاءه على عجل وغاص في أكوام الدفاتر والبطاقات والحوالات يحسب حتى الهزيع الثاني من الليل، وتزوغ عيناه، ولا تعود به طاقة للإستمرار فيخلد الى النوم..

لم يكن الأمر قضية يوم أو يومين أو شهر أو شهرين، أودواء يشرى وينتهي الأمر.. كان لا بد أن يتوفر لي مستوى من الحياة المرفهة مكلفة من الإشراف الطبي والغذاء الوافي والراحة والهواء النقي.. واستأجر لنا بيتا في بيت جالا دهنه قبل انتقالنا، وكان له بابان واحد أمامي بدرج عريض وباب حديد، والآخر خلفي تطل عليه ربوة فيها شجر كثيف.. وحوله بستان فيه شجرة زيتون وأشجار مشمش وتفاح وأجاص، أخذ اخوتي الثلاث في تنسيق أحواض من الزهر لمختلف الفصول في ساحته الأمامية والشرقية، أما في الساحة الخلفية فقد زرعوا فيها مختلف أنواع الخضار.. كنت بفضل عنايته كمن يعود الى الحياة من جديد، فما أن يرى الحمرة تكسو وجنتي حتى يشعر بأنه أسعد مخلوق على وجه الأرض..

قاسى أسابيع والروع يقض مضجعه حين أصبت بذات الجنب خوف أن يفقدني وأمن لي أثمان الكتب المدرسية والقسط المدرسي واستمر يجهد وينفق علي، حتى يوم الجمعة، يوم راحته الوحيد كرّسه لتنظيم حسابات الطبيب مقابل إشرافه على صحتي..

كنت أشعر بأنني أسرق الجميع، وتمر بي فترات يائسة أتمنى معها لو أنني قضيت نحبي ولم يمتد بي الأجل في حياة هزيلة تعيش عالة على الآخرين.. وأثور في أحيان أخرى أريد أن أعمل فيأبى عادل ويؤكد لي أن عمله لا يرهقه، وأنه اعتاد على الصعوبات فأصبحت تسلية لديه.. وأن الأيام الصعبة لن تلبث أن تنقضي فسيتخرج هاشم عن قريب من مدرسته الثانوية، ثم يتبعه معتصم فيتفرغ لنفسه وقد أمّن مستقبل الجميع، فيفي ما عليه من ديون ويتزوج..

كانت أمي تراود والدي على بيع دار العائلة في دمشق ولكنه كان يعض عليها بالنواجذ، فهذه الدار هي ما بقي له من أملاكه الخاصة، وأما أراضيه الشاسعة فكانت وقفا للأسرة، ولا يجوز بيعها.. كان يقول: من يبيع دارا يتبجح عاما ويختنق بعدها أعواما، ومن يشتري دارا تضيق به الحال زمنا ويرتاح باقي العمر.. فلما أخذت أمي بالإلحاح عليه ليخلص عادل من الدائرة الجهنمية التي يعيش فيها وافق وكسا الوجوم وجهه، وحمل كرسيا وجلس في شرفة المنزل الأمامية ويده اليمنى على ركبتيه، وأخذ الشاهد ينفض الباهم بحركة عصبية، وكأنه ينقف به حجارة صغيرة.. نادى عادل وقال له:

–هيئ نفسك للسفر الى دمشق، ولكن إياك أن تبيع الدار، بل ارهنها، فأوضاعي تتحسن وأستطيع خلال عام أو عامين أن أوفر مبلغ الرهن..

* * *